المشرق

القديس بطرس كانيزيوس ملفان الكنيسة

نظر تاريخي اجتماعي للاب لويس شيخو اليسوعي

في مثل هذا الشهر آذار احتفلت مدرستنا الكليّة قبل سنتين بتطويب احد مشاهير رجالها الطوبوي الكردينال روبرتس بلّرمين (١ وها هي تعود في الشهر الحاضر الى تمجيد بطل آخر من جهابذة رهبنتنا اليسوعية الذي لا يزال اسمهُ شائعاً في كل انحاء اوربّة المركزيّة كالمانية وباڤارية والنمسة وسويسرة وهولندة نريد بهِ القديس اليسوعي بطرس كانيزيوس ملفان الكنيسة وأحد جابرة الكثلكة في القرن السادس عشر. الذي اعلن الحبر الاعظم بقداستهِ يوم صعود الربّ من السنة الماضية ونظمهُ في عداد ملافنة الكنيسة الكبار. وبعد ان أتيمت حفلات عيدهِ الاوّل في رومية قد خُصص العام الحاضر لاقامة حفلات مثلها في جهات العالم الكاثوليكي

*

قال القديس اوغسطينوس: «انّ الله كان بامكانه منع الشرّ فتفضّل ان يسمح بهِ لكي يُظهر قدرتهُ ويستخرج من الشرّ خيراً». وهكذا حدث في القرن السادس عشر اذ نشر لوتاروس راية العصيان على الكنيسة مدّعياً بالاصلاح الكاذب ومرخياً العنان لكل الشهوات البشرية الفاسدة. ففي ذاك العصر ازدانت الكنيسة بعدد عديد من اولياء الله الذين اكسبوها مفاخر جمّة برّرتها من كلّ التهم التي وُجّهها اليها المبتدعون. فهو العصر الذي ازهر فيهِ رجالٌ كبار ادهشوا العالم بفضلهم وقضائلهم

(١ اطلب المشرق ٢٢ [١٩٢٤]: ٢٤١-٢٤٧)

كالقديس بيوس الخامس وكفيليب دي نيري وبطرس التنطوي وشرل بوروماوس وتريزيا مصلحة رهبانيَّة الكرمل وغيرهم كثيرين لا يزال ذكرهم حيًّا واعمالهم المزورة مسطَّرة بالحروف الذهبيَّة في بطون التاريخ

وفي اواسط ذلك العصر انشأ القديس اغناطيوس رهبانيَّتهُ المناضلة عن حقوق الكنيسة وتعاليمها فأيَّدهالله بمدَّة انصار تصدَّوا لبدع الهراطقة ووضعوا حدًّا لوباتها. كفى بذكر البعض منهم كبطرس لوفاثر سفير الاحبار الرومانيين لدى الملوك وكفرنسيس كسفاريوس رسول الهند واليابان وكلاينس وسلمرون سراجي المجمع التريدنتيني. وكفرنسيس بورجيا دوقة گندية ونائب الملك على كاتلونيا

وقد امتاز بين هؤلاء بطرس كانيزيوس المقام حديثًا على هياكل الكنيسة الكاثوليكية. وها نحن نعرِّف بوجيز الكلام ما استحقَّ لهُ هذا الاكرام الجزيل في انحاء المعمور

١ الرجل

كان مولد كانيزيوس في مدينة نيماغ من حواضر بلاد هولندة حاضرًا وكانت في عهده احدى مدن دوقيَّة غلدري المستقلَّة موقعُها على نهر من سواعد الرين. اجتاز بها الامبراطور شرلماني وشيَّد لهُ فيها قصرًا وبرجوعها ولد الامبراطوران هنريكس الرابع وهنريكس السادس

ففي اليوم الثامن من أيَّار من السنة ١٥٢١ ابصر كانيزيوس النور وفيهِ عيد رئيس الملائكة ميخائيل المنتصر على قوَّات الجحيم. وكان لوتاروس في تلك السنة بعد جحوده نذور رهبانيَّته جاهر باضاليله مصرًّا على تعاليمه الفاسدة. وفيها دافع اغناطيوس دي لويولا كقائد جيش دولة اسبانية عن مدينة پمپلونة فكُسرت ساقهُ وكان ذلك داعيًا الى انقطاعه الى خدمة الله ثمَّ الى انشاء الرهبانيَّة اليسوعية. فجعل الله الدواء قريبًا من الداء

كان والدا كانيزيوس شريفين ممتازين بتقواهما. تعيَّن ابوهُ جاك كرئيس بلديَّته غير مرَّة واتَّخذهُ دوقة الدولة كسفيره الى ملوك اوربَّة. وامُّهُ ايجيديا انشدت الله اولادها الثانية قبل موتها ان يثبتوا في ايمانهم الكاثوليكي ولا يُصيخوا سمعًا الى

البدع الجديدة وشقشقة زعمائها. فكان لهذا الكلام احسن وقع في قلوب اولادها ولاسيما بطرس الصغير فانطبع في جنانه كطبع النقش على الحجر. تخرّج كانيزيوس في وطنه اوّلًا على اساتذة بارعين فاخذ عنهم مبادئ العلوم. وكان اذ ذاك مشمولًا بانظار اقاربه لاسيما احدى خالاته المعروفة بالفضل والتقى التي كانت تسهر عليه بكل حرص وترشده الى كل عمل صالح. فكان الولد اطوع لها من بنانه فكان يتردّد على الكنائس ويثابر على الاسرار ويقضي زمناً طويلًا في الصلوات ويتقلّد ما يسعه من اعمال القديسين ليحقّق في نفسه ذكر فضائلهم

على انّ عدوّ البشر نصب له الاشراك بواسطة بعض الاشقياء الدارسين معه وكاد يقع في حبائلهم لولا نعمة خاصّة من الله الذي صانه من مكايدهم فابتعد عنهم وتشبّث باحراز العلوم اللغويّة والثانويّة صارفاً ذهنه الى تثقيف عقله وتهذيب حياته حتى لم يجده احدٌ فارغاً الّا والكتاب اليفه وسميره . وقد دوّن في مذكرات حياته شكره لله الذي لم يسمح بفقد كنز طهارة قلبه

لما بلغ كانيزيوس السنة الخامسة عشرة من عمره لم يجد في وطنه ما يشفي غليله بتعليم اساتذته فاحبّ اهله ان يواصل دروسه في احدى مدن المانيا الشهيرة . وكانت مدينة كولونية في ذاك الزمان من اشهر مدن اوربّة بجامعتها واساتذتها . فانتقل اليها ونزل في بيت احد مواطنيه وكان كل يوم يسير الى مدارس المدينة ليكبّ على الدروس العليا فاتقن اوّلًا العلوم البيانيّة والخطابة سنة ١٥٣٥ ثمّ تفرّغ لدرس الفلسفة مدّة اربع سنين فحاز كلّ امتيازاتها من باكالوريوس و ڤدون وماجستير وبعد ان قدّم امتحاناً على كل قضايا الفلسفة أمام مجموع علماء كلية وجمهور اهلها فاعلن به استاذاً في ٢٥ ايّار سنة ١٥٤٠

وكان في وسعه ان يقترن بالزواج مع آنسة من اشراف بلده جامعة بين الغنى والجمال فصرّح انه يريد خدمة وطنه بالبتولية بدئة كاهن. ولذلك باشر درس اللاهوت بفروعه وشفعه بدرس الحقوق المدنية والكنسية فاصاب فيها كما في الفلسفة قصبة السباق على اقرانه

وعاد الشيطان في مدّة دروسه في كولونية ليضلّه عن سواء السبيل بما لقيه في تلك المدينة الكبرى من الاسباب الوهمية والتجارب الداخية الى التراخي في الدين

والاستسلام الى الشهوات. بل وجد بين الاساتذة معلمين كانوا جنحوا سراً الى اضاليل البروتستانت فنفثوا سمّهم في تلامذتهم. لكنّ الله ارسل لكانيزيوس كاهناً ذا فضل عميم وعلم واسع وفضيلة سامية يُدعى نيقولا ڤان إشه (N. Van Esche) اتّخذهُ كانيزيوس كمرشد امين وصديق صدوق اوقفهُ على اسرار ضميره وانقاد الى مشورته في امور نفسه وتدبير حياته فنجا بواسطته من كل غرور العالم وسفسطة تبعته. وتعلّم من مرشده كيف يجاهد في سبيل الله ويقهر شهواته ويطلب كلّ كمال في اعماله

٢ اليسوعي

كان كانيزيوس منذ نعومة اظفاره يتوق الى خدمة الله في السيرة النسكية اذ كان يزور مع اهله وخصوصاً مع خالته اديرة الرهبان والراهبات فيشعر في قلبه ميلاً الى الاقتداء بهم. ومما اخبرهُ في مفكراته انهُ في السنة الثالثة عشرة من حياته (١٥٣٤) زار مع والديه في مدينة أرنهيم ارملةً قديسة تُدعى رَينهولدْ. فلما رأتهُ حدّقت اليه بنظرها وقالت: «عما قليل ستظهر رهبانيّة جديدة في الكنيسة للدفاع عن الايمان وسيكون هذا الصبي من جملة كهنتها وسيردّ كثيرين من الضالين الى حجر البيعة امهم»

وكتب القديس ايضاً في وصيّته الاخيرة انّ راهبةً اخرى من بلادِ بلجكة كرّرت عليه مثل هذا الوحي وذكرت انهُ سيخدم الكنيسة بتآليفه العديدة. فكلام الارملة والراهبة بقي متبجّناً في قلبه طول ايام دروسه في كولونية وفي مدينة لوڤان. وانما بقي مرتاباً لا يعلم كيف تتمّ فيه مشيئتهُ تعالى فرغب الى اصحابه ان يشاركوه في الصلاة ليقف على حقيقة دعوته

فما مرّت عليه بضعة ايام حتى سمع في قلبه صوتاً يؤكد لهُ انهُ سينال قريباً رغبتهُ. وهكذا كان. فانّ في تلك الاثناء تعرّف كانيزيوس بكاهنين اسبانيين كانا قدما الى كولونية لمواصلة دروسهما اللاهوتيّة. وكان كلاهما دخل الرهبانية اليسوعيّة التي ظهرت حديثاً في بلادهما بواسطة بطرس لوفاڤر رفيق القديس اغناطيوس. وكان لوفاڤر قد خرج من اسبانية وقصد المانية للتبشير فكانت جماهير الناس تتقاطر الى

استماع مواعظه ومحاضراته في مدينة مايننس فيرتدّ الخطأة الى الله عن يده

فعزم كانيزيوس من ساعته ان يذهب الى مواجهة لوفائر ليستشيره في امور نفسه. فما اجتمع به في اواخر نيسان من السنة ١٥٤٣ حتى اشعره الله انهُ لقي ما كان يطلبهُ. وباشر تحت ادارة ذاك المعلّم القديس رياضات منشئ الرهبانيّة اغناطيوس دي لويلا مدّة ثمانية ايّام فأفعم الله قلبهُ تعزيةً ونورًا والتمس للحال من مرشده ان يقبلهُ بين اعضاء الرهبانيّة اليسوعيّة. فاجاب الى ملتمسه وتمّ الامر فعلًا في يوم تذكار ميلاده ٨ ايّار يوم عيد القديس ميخائيل من ذاك العام وعمرهُ حينئذٍ ثلاث وعشرون سنة. وقد كتب بخطّ يده صكًّا اودعهُ تخصيص نفسه لرهبانيّة يسوع وشكره الله تعالى عن هذه النعمة الجزيلة ووعده بان ينقطع الى كل ما يؤول الى مجد الله وخلاص القريب تحت امر رؤسائه. وامضى ذلك الصكّ بخاتمه وسلّمهُ الى الاب لوفائر واقتبل من يده القربان الاقدس كخاتم على مواعيده. ثمّ اسرع واخبر اقاربهُ واصحابهُ ولاسيما مرشدهُ الكاهن نيقولا بانتظامه في سلك الرهبانيّة اليسوعيّة وذلك بعبارات طافحة بالفرح اثّرت في قلوب جميع من وقف عليها حتى انّها دفعت البعض منهم الى الجري على آثاره في رهبانيّة يسوع

وفي تلك الاثناء بانهُ خبر مرض والده فذهب الى نياغ برخصة الاب لوفائر فوصل اليها ووجد اباهُ مستعدًّا لآخرته اتمّ الاستعداد وبقي عنده الى ان فارق دار الفناء. فأدّى اليه بطرس واجبات أبرّ البنين وصلّى لراحة نفسه طويلًا فأراهُ الله والديه في دار النعيم فتعزّى بتلك الرؤيا وفرّق على الفقراء ثروة ابيه مكتفيًا بشيء قليل لمعاشه ومعاش رفقته

ثمّ عاد الى كولونية في اوائل سنة ١٥٤٤ وجعلهُ لوفائر رئيسًا على اخوته الرهبان فانجز هناك وفي جامعة لوفان دروسهُ اللاهوتيّة حتى بلغ منها مبلغًا حبّبهُ الى كل اساتذته فمنحوه كل اجازات المتخرّجين في جامعة كولونية وفي ختامها قبل سرّ الكهنوت (١٣ حزيران ١٥٤٦) وجدّد عزمهُ على تضحية قواه في خدمة الكنيسة

ولم ينتظر رجل الله سيامتهُ كاهنًا ليشتغل في كرم الربّ فانّ اكليروس كولونية استدعاهُ وهو شمّاس ليلقي المواعظ في كنائس المدينة وكان في ايّام الآحاد والاعياد يفسّر لجمهور المؤمنين الاسفار المقدّسة فتضيق البيع مع رحبها على سامعيه

واذ رأى قيحة البروتستانت في نشر بدعتهم في كولونية اخذ يفند امام الكاثوليك اضاليلهم حتى أفحمهم لكنَّهم اجتمعوا لدى ارباب الامر الالمانيين الى آرائهم وألَّبوا عليهم ليتفوا كانيزيوس ورفقتهُ من حاضرتهم فأبرزوا حكماً في ذلك لولا انَّ عقلاء المدينة اوقفوا تنفيذهُ فاكتفوا بان يشتتوا اليسوعيين في انحاء البلدة تفريق كلمتهم. فصبر اليسوعيُّون على هذه الاهانة ولم يزدهم الاضطهاد الَّا تحدِّياً. وكان كانيزيوس في مقدَّمتهم يُدهش الجميع بصبره وبراحة خدمهِ الروحية الى العموم حتى أُلغي تماماً ذاك الحكم في حقهم. واذ بلغ الاهلين انَّ الرؤساء فكَّروا في استدعائهم من المدينة لم يألوا جهدهم في حفظهم بقربهم

ثمَّ ما لبثوا ان اظهروا اعتبارهم لشخص كانيزيوس في موقف حرج وذلك انَّ رئيس اساقفة كولونية المدعو هرمان دي قيد كان انضوى الى بدعة لوتاروس واخذ يبثُّ في شعبهِ اضاليلهُ. فرأى الكاثوليك ما يحيق بايمانهم من الخطر الجسيم واجتمع اكليروس المدينة واعيانها لطلب دواء ناجع لهذا الداء. فلم يجدوا لذلك علاجاً الَّا ان يطلبوا من الامبراطور شرل الخامس ان يتوسَّط لدى الحبر الاعظم فيعزل هرمان عن منصبهِ ويسلِّم كنيسة كولونيا الى رجل كاثوليكي. واتَّفقوا على ان يرسلوا كانيزيوس الى الامير جورج النمساوي ابن الامبراطور مكسيميليان وعمّ شرل الخامس وهو وقتئذٍ رئيس اساقفة على مدينة لياج ليسعى عند ابن اخيهِ فيبدل ذاك الاجير بل الذئب الخاطف من راعٍ امين

فقام كانيزيوس احسن قيام بهذه المهمَّة واختبر رئيسُ اساقفة لياج غيرتهُ وعلمهُ الواسع ووصَّى بأموريتهِ الامبراطور شرل الخامس. فعاد الرسول الى كولونية واوقف اهليها على نتيجة سفارتهِ واذ رأوا اصرار اسقفهم على اضاليلهِ ارسلوا كانيزيوس الى شرل الخامس ليعرض عليهِ امرهم. فسار الى مدينة أوْلم حيث اوقف الامبراطور على اعمال رئيس اساقفة كولونية واطلعهُ على مكاتيب التوصية من عند رئيس اساقفة لياج ومن سفير الحبر الاعظم اسقف اوغسبورج فما تمَّ ان كتب الى سفيرهِ في رومية ليطلب من البابا أن يعزل هرمان عن رئاستهِ. فنعل الحبر الاعظم وحرم الاسقف المشايع للهراطقة وجعل لرعاية كنيسة كولونية اسقفاً جديداً معروفاً بايمانهِ المستقيم وغيرتهِ وهو أدولف دي شاونبرغ

وما كانت هذه الخدم الجليلة التي ادّاها كانيزيوس لاهل كولونية الّا كبعض اكورة اعماله . فانّ الكنيسة الكاثوليكية كانت في اواخر السنة ١٥٤٥ عقدت احد مجامعها المسكونية الذي يُعدّ من اعظم مظاهرها الدينيّة تريد به المجمع التريدنتيني . وكان بين الذين حضروهُ عدّة يسوعيين كخطبائه . ولاهوتيين يمثلون الحبر الاعظم وبعض الاساقفة فوقع اختيار سفير الكرسي الرسولي في المانية الكردينال اوتون تروشاس اسقف اوغسبورج على كانيزيوس ليرسلهُ باسمهِ كنائبهِ الى المجمع . ولخوفهِ من ممانعة اهل كولونيه اشتدّ الامر من القديس اغناطيوس في روميه فلبّى دعوته وسافر كانيزيوس الى مدينة تريدنتي فوجد هناك اربعةً من اخوته الرهبان اثنان منهم لايبنس وسلمرون بصفة لاهوتيّي الحبر الاعظم فاشترك كانيزيوس معهم سواء كان بخطبهِ في المجمع ام بوضعهِ لقسم من دستورهِ . وبقي هناك الى خريف السنة ١٥٤٧ حيث أُوقفت جلسات المجمع . فاستدعى القديس اغناطيوس الى رومية كانيزيوس لكي يتمّ بنفسهِ في تأسيسهِ بكل الفضائل الرهبانيّة فامتحنهُ مدّة ثلثة اشهر فسُرّ بما رآهُ فيهِ من الكمال الرهباني . وبعد ان ارسلهُ الى مدينة متينة ليعلّم في مدرستها الآداب ويراقب مدرّسيها اعادهُ الى رومية واجاز لهُ ان يُبرز امامهُ نذورهُ الاحتفاليّة وبها بلغ اوج نظام رهبانيّتهِ

كان يوم ابراز كانيزيوس لنذورهِ الاخيرة امام رئيسه القديس اغناطيوس يوماً مشهوداً نال فيهِ من الله اسبغ نعمهِ . وكان سبّقَ ومثّلَ امام الحبر الاعظم بولس الثالث فنال بركتهُ ثمّ دخل باثرها كنيسة القديس بطرس الفاتيكانيّة فاوحى الله اليهِ انّهُ اختارهُ ليكون رسول المانية لينصر للايمان الكاثوليكي بازاء الهراطقة . واذ كان يشكر امام الرب من ضعفهِ في القيام بمثل هذه الدعوة الشاقّة ظهر لهُ السيد المسيح وكشف لهُ عن قلبهِ كما فعل مع القديسة مرغريتة مريم وأمرهُ ان يستقي من هذا الينبوع ما يحتاج اليهِ من النعم ليفوز بغايتهِ . فشعر بعد ذلك بقوّة الهيّة نفت عنهُ كلّ خوفٍ ووجد حالهُ مستعدّاً لتضحية نفسهِ واحتمال كلّ المشقّات والانصاب حتى الموت . ونسبَ هذه النعم الى شفاعة ابيهِ اغناطيوس الذي تقبّل نذوره في اليوم التالي

٣ الرسول

مَنْ لنا أن نصف سوء احوال الدين في المانية في اواسط القرن السادس عشر . فمنذ يوم نفخ فيها لوتاروس روح الفتن والعصيان كانت اصبحت تلك البلاد ساحةً للثورة الدينيّة والفوضى . فانّ مشايعي ذاك الراهب الجاحد كانوا يتجوّلون في كل الانحاء وفي ايديهم السيف والنار فينهبون الاديار ويقتلون الكهنة واتقياء المؤمنين ويحرقون الكنائس ويبيحون كل الارجاس . وكانت تعاليمهم كلُّها موجّهة لنقض عقائد الكنيسة لا يعرفون إلّا السبَّ والشتم واهانة الاكليروس وخرق المقدسيّات . وكثيرًا ما كانوا ينساقضون بعضهم بعضاً فيزيّف الواحد قول الآخر وينسب اليه الضلال حتى اخذ لوتاروس يلعن ذويه الذين لم يعودوا يسمعون لهُ امرًا . امّا الشبيبة فاطلقت لشهواتها كل عنان واستسلمت الى كل اهواء النفس الأمّارة فلم يعد يعرف الرؤساء كيف يضعون حدًّا لهذا السيل العرمرم

❊ كانيزيوس في باڤاريّة ❊

وكان رئيس دولة باڤاريّة الدوقة غيليوم سعى طاقة جهده الى صيانة بلاده من شرور المراطقة وكثيرًا ما كان يردّد قولهُ «اني أفضّل فقد املاكي وحياتي على ان اسلّم شعبي للوتاروس» . وكان يسعفهُ في جهاده هذا رجلان شهيران بسموّ علومها وتقاهما اللاهوتيّ جان إكيوس وكنشليار مدرسة إنغولستاد الجامعة المدعو ليونار دِك . وكانت الجامعة حريصة على حفظ الايمان والدفاع عنهُ في تعاليمها اذ كان بين معلّميها لنيوس الشهير الملقّب بطرقة المراطقة والراهب جاك هيولان الضليع بالعلوم الشرقيّة

على انّ ذاك الساج اخذ يتحلحل بعد وفاة جان إكيوس في ٢٩ شباط سنة ١٥٤٥ وجعل اعداء الدين يتسرّبون الى جهات باڤاريّة حتى تأثّر من تعاليمهم بعض اساتذة المدارس واوشك الضلال ان يخامر عقول الناشئة . فلم يرَ دوقة باڤاريّة دواء أصلح من ان يلتجئ الى منشئ الرهبانيّة اليسوعيّة ليرسل الى جامعة انغولستاد بعضاً من رهبانه

ليعيدوا اليها رونقها السابق بتعليمهم ويفندوا اضاليل اللوثرانيين ويهذبوا الشبيبة تهذيباً مسيحياً صالحاً لئلا تغويهم اباطيل الهراطقة

كان الرهبان اليسوعيون في ذلك العهد قليلي العدد والمالكُ والاساقفة يستدعونهم من كل ناحية لما شاع في البلاد من صيت علمهم وبرّهم . ومع ذلك لم يشأ القديس ان يجيب امل دوقة باڤارية فارسل اليه ثلثة من افضل رهبانه قدّموا قبل سفرهم فحصاً مدقّقاً عن كل العلوم اللاهوتية في جامعة بولونية الشهيرة فخوّلهم اساطينُها شهادةَ الملفنة ثمَّ ساروا الى مدينة مونيخ . وكان الدوقة في انتظارهم بفروغ الصبر فرحّب بهم وبالغ في اكرامهم وبعد أيام قليلة قادهم كنشلياره الى انغولستاد وعهد اليهم بتدريس ثلثة فروع من علومها اللاهوتيَّة والفلسفيَّة والكتابيَّة . فما مرَّ عليهم بضعة اشهر حتى حفلت الجامعة بالدارسين وسار ذكر الاساتذة الجدد الى اقاصي المانية

وتولى كانيزيوس ادارة الدروس وتنظيمها ومراقبة طلبتها وكان يُعنى بامور كل واحد منهم لا يأخذهُ مللٌ في نجاحهم . وكان اذا رأى بينهم متأخرين في دروسهم يلقي عليهم دروساً خاصَّة حتى احبتهُ الشبيبة وتقرَّبت اليه واثقةً بكلامه

فانتهز تلك الفرصة ليحيي في المدينة روح الدين الذي كاد يفنى بغارات اعدائه وشرع يعظ في الكنائس ويعقد الجمعيَّات التقويَّة ويحرّض المؤمنين على كل الاعمال الصالحة والمثابرة على الاسرار . فلقي في اول الامر عناء كبيراً الَّا انَّهُ لم ييأس من ادراك غايته فبارك الله ثباتهُ وبعد سنتين تغيَّر وجه المدينة واصبحت زاهرةً بالآداب والفضائل المسيحيَّة . وكان القديس يهتمُّ خصوصاً بفتح مدرسة ثانويَّة لرهبانيَّته لتقيف الاحداث قبل دخولهم الجامعة ولاسيما ان انغولستاد بموقعها في مركز البلاد كان لها نفوذ اعظم في انحاء المانية وكان جلُّ اهتمامه بألَّا يفوّض التعليم في المدارس لغير المعلّمين المعروفين باستقامة ايمانهم وبراءة حياتهم

﴿كانيزيوس في النمسة﴾

بلغ خبر نجاح اليسوعيين في باڤارية مسامع ملك النمسة فرديناند الاوَّل مالك الرومانيين فعرف انَّ لا شفاء لدرته الَّا بذات الدواء . وكانت النمسة في حاجة ماسَّة الى النجاة من مخالب البروتستانت الذين كانوا عاثوا فيها فساداً فأضلّوا ثلثي سكانها

فسعى الملك وجان فابر رئيس اساقفة ڤينّا لدى الحبر الاعظم جوليوس الثالث ولدى القديس اغناطيوس ليُنال بعضاً من اليسوعيين لينقذوا بلادهما من براثن الهراطقة . فسار اليها اوّلاً الابوان لوجاي ولاينوا سنة ١٥٥١ وباشرا بإحياء جامعة ڤينّا عاصمتها التي كانت بلغت الذراع بسقوط دروسها . وفي العام المقبل اتّسعت دائرة العمل فأُرسل اليها كانيزيوس بعد ان وطّد دعائم جامعة انغولستاد (سنة ١٥٥٢) فجدّد في ڤينّا مساعيهُ كما فعل في باڤارية بالمواعظ والتعليم وكان يعود المرضى في المستشفيات . وفي اثناء ذلك ظهر الطاعون في ڤينّا فكان كانيزيوس اوّل من خصّص نفسهُ لخدمة المطعونين وكان يُعنى بفقراء المدينة فيوزّع عليهم ما يجمعهُ من صدقات المؤمنين ويزور الحبساء في سجنهم ويساعد في منتع الدم مَن حُكم عليهِ بالإعدام ويفرغ الوسع خصوصاً في اصلاح الاكليروس

ثم زادت اشغال كانيزيوس بوفاة الاب لوجاي فعُهدت اليهِ رئاسة اخويته وطلبهُ الملك ليعظ في بلاطهِ فلم يأبَ . وفي السنة ١٥٥٣ منح الحبر الاعظم يوبيلاً للمملكة ففي أيام الصيام تجوّل في المدن والقرى ليدعو المؤمنين الى ربح الغفارين والنعم الروحيّة المتوطة باليوبيل . فكانت هذه الاعمال كابواق الدينونة افاقت المؤمنين من سِنَتهم وانعشت فيهم روح الدين بعد خمولهِ

ثمّ عاد الى ڤينّا وترأس على جامعتها فنظّم كل دروسها ووضع لها القوانين الحكيمة وعيّن لها الكتب المدرسيّة الصالحة واحرق ما وجدهُ من كتب الهراطقة . ثم ادرك ما للدروس الثانويّة من عظم الشأن لنجاحها ولتربية الاحداث منذ نعومة اظفارهم فانشأ بالاتفاق مع الملك فرديننذ مدرسة لاشراف البلاد يوميّة وليليّة وانتدب لتعليمهم بعض اليسوعيين . فاتت تلك المدرسة بأطيب الثمار وخرج منها عددٌ لا يُحصى من رجال الدنيا والدين كانوا فخرًا لبلادهم وسورًا حماها من غارات الهراطقة . وهناك تخرّج ذاك الشاب الملائكي القديس استانسلاوس كوستكا من اعيان پولونية فارسلهُ كانيزيوس الى رومية فدخل الرهبانيّة اليسوعيّة وفيها توفي بعد عشرة اشهر براتحة القداسة يوم عيد انتقال العذراء الى السماء

وفي تلك الاثناء قدم رجلان من زعماء البروتستانت الى ڤينا وطلبا جدالاً عموميًّا مع كانيزيوس في امور الدين فلبّى القديس الى ملتمسهما وفي اليوم المعيّن اجتمع اعيان

المدينة في معهد واسع فباشر الزعيمان وافاضا في التشنيع على التعاليم الكاثوليكية بالشتم وبذيّ الكلام كمألوف عادة المبتدعين وانّما القديس قام وفنّد كل اعتراضاتها فرد الواحد منها الى الايمان وخرج الثاني مغضباً يتهدّد كانيزيوس واخذ مع رفقته يدسّ الدسائس ليظفر به ويقتلهُ . فكان القديس يردّد قولهُ : «يا ليتني امرت في سبيل الايمان فانَّ دم الشهداء احسن زريعة للكنيسة» . لكنَّ الملك خوفاً عليهِ من اولئك الاشقياء وَكلَ الى جرسه بان يراقبوا اعداءهُ فلا يَدَعوهم يرتكبون في حقّهِ سوءاً . اما القديس فزاد غيرةً ولم يزل يتعقّب آثار الهراطقة لاسيما المتسترين منهم تحت ثياب الحملان كالتانوني بفاوزر الذي كان وقع في فخاخ البروتستانت

ولما رأى فرديناند اعمال كانيزيوس الجبّارية في عاصمتهِ وخذلان ارباب الهراطقة بمساعيهِ اراد ان يقيمه خلفاً لجان فابر المتوفى فيكون رئيس اساقفة على فيَنّة إلّا انَّ القديس ابى الامر كلّ الاباء وبعد الالحاح المتواتر رضي بان يكون مدبّراً للكرسي الاسقفي ريثما يُقام على المدينة حَبْر جديد فبقي في تلك المهنة سنةً تولى فيها كل شؤون فيَنّا الروحية فعُدّت في تاريخها من ابرك السنين حتى انَّ خلفاءهُ من اساقفة فيَنّا جعلوا الى يومنا صورتهُ في سلسلة صُوَر إحبارهم

وكان البروتستانت بازاء النهضة الكاثوليكية على يد اليسوعيّين في بافارية والنمسة والمانية تحزّبوا جامعين قواهم وزادوا قحةً وتحاملوا بما امكنهم من ضروب العداء على الكنيسة وحُماتها وعقائدها . فرأى كانيزيوس ان اقرب واسطة لكسر شَباتهم وتقبيح آرائهم ان يؤلف للشبيبة خلاصة التعليم المسيحي على صورة واضحة بادلّة بيّنة من آيات الاسفار المقدّسة واقوال الآباء على كل معتقد من معتقدات الكاثوليك النافية لاضاليل البروتستانت والناقضة لكل مذاهبهم . فظهر هذا التعليم في اوائل أيار من السنة ١٥٥٥ وانتشر اي انتشار في كل اقطار اوربة . وكان اوّل تعليم ظهر في الكنيسة من جنسهِ ليس فيهِ كلمة جارحة في حقّ المبتدعين وانّما يدكُّ كل مزاعمهم دكًّا . فتكرّرت بعد قليل طبعاتهُ واصبح في كل المدارس الدستور القانوني للتعليم المسيحي بامر الاساقفة والملوك . وكان اعظم برهان على انهُ اصاب الهدف انَّ البروتستانت انهالوا على كاتبهِ بكل انواع الشتائم ولم يستطيعوا تفنيده

ثمَّ اختصر القديس هذا التعليم للاحداث الصغار فزاد رواجهُ ولم تَخلُ مدرسة

من فوائده . وقد نُقل الى كل اللغات الاوربيَّة حتى اللغات الشرقية منهُ ترجمة عبرانيَّة وعربيَّة نُشرت سابقاً في مطبعتنا الكاثوليكيَّة

﴿ كانيزيوس رسول المانيا ﴾

انَّ ما اصابهُ كانيزيوس من الشهرة في باڤارية والنمسة استوقف نظر سائر الدول المركزيَّة اليهِ والى رهبانيَّتهِ . وكان اليسوعيُّون يزدادون كل يوم عدداً فدخلوا في عدَّة مدن بدعوة الامراء الكاثوليك والاساقفة . فرأى القديس اغناطيوس ان يقيم كانيزيوس رئيساً اقليمياً على كل جهات المانية والنمسة ليسير جميع الرهبان على خطة واحدة في فلاحة كرم الربّ وفي الدفاع عن حياض الدين ضدّ المراطقة وقد تمَّ الامر في اواخر نيسان سنة ١٥٥٦

انَّهُ لامر عسير ان نعدّد كل اعمال كانيزيوس مدَّة الخمس والعشرين السنة التي قضاها في المانية لخدمة الكنيسة الكاثوليكيَّة (١٥٥٦ــ١٥٨٠) فان تعدادها يستغرق مجلداً واسعاً وانَّما نشير فقط اليها اشارة خفيفة اجمالية

تحقَّق كانيزيوس في تلك المدَّة انَّ النجح واسطة لصيانة الكاثوليك من وباء المراطقة انشاء مدارس ثانويَّة لتهذيب الشبيبة . فبادر على قدر ما وجدهُ من رهبانهِ لهذا العمل الخطير وفتح في المدن الآتية مدارس منظَّمة : في مونيخ وكولونية وانغرلستاد وفيَّنه وبراغ وثورمس وفي وطنهِ نياغ وفي فريبورغ الالمانيَّة وإنسبروك وستوينتز وثورنبورج واولموتز وسپير وديلنغن . وقد تسلَّم في هذه المدينة الاخيرة ادارة جامعتها الكبيرة ما عدا مدرستها الثانويَّة . ولعمري انَّ واحدة من هذه المدارس كانت كافية لتشغل عدَّة رجال فكيف امكن كانيزيوس ان يقوم بانشائها ومراقبتها كلها !

ومن اعمالهِ الجليلة حضورهُ في اربعة مؤتمرات للمفاوضة مع المبتدعين بحضور كرادلة ممثلين للحبر الاعظم وكثيرين من الاساقفة والامراء في ثورمس واوغسبورج وراتسبون وبوتروكوف فخطب مراراً وأفحم المبتدعين . ثمَّ عاد الى تريدنتي عند استئناف اعمال المجمع المسكوني بصفة لاهوتي

وكان في هذه السنين يتنقَّل الى كل اقطار المانية وباڤارية والنمسة وبولونية

وعنفارية يلقي فيها المواعظ والارشادات والمحاضرات والخطب المختلفة للدفاع عن الدين ولاصلاح احوال المملكة . وكثيراً ما كان يخطب امام الملوك والامراء. وقد انتدبهُ الاحبار الرومانيُّون جوليوس الثالث وبيوس الرابع والقديس بيوس الخامس وغريغوريوس الثالث فارسلوهُ كسفيرهم الى الامبراطرة والملوك فكان بحكمتهِ يقضي مأمورياتهِ على وفق مرامهم فيثنون على حذقهِ ومهارتهِ

وزد على ذلك انَّهُ كان يتفرَّغ في ليلهِ للتأليف ردًّا على تُهم وسفسطات المراطقة كما سنذكرهُ . وتآليفهُ وحدها لمَّا يشغل حياةً بتمامها . واذ لم يعرف البروتستانت كيف ينجون من جدالهِ اشاعوا بين ذويهم في ڤورتمبورج انَّهُ عدل الى مذهبهم . فلما بلغ الخبر أُذن كانيزيوس ذهب من وقته الى تلك المدينة واخذ يعظ في كنائسها الكاثوليكيَّة فانكشف مكرهم لدى الجميع . وقد ردَّ رجل الله الوفًا من الذين كانوا عدلوا الى المذهب البروتستاني فاوعووا عن ضلالهم بينهم الامراء والاعيان

﴿ كانيزيوس رسول سويسرا (١٥٨٠–١٥٩٧) ﴾

كان كانيزيوس بلغ الستين من عمرهِ وهو لا يزال في نشاطهِ وهمَّتهِ مع ما قاساه من المشقَّات والاتعاب . وفي تلك الاثناء حاول البروتستانت ان يزرعوا زوانهم في سويسرة وكان زوِنغل وكلوينوس قد افسدا قسماً من مقاطعاتها كجنيفه وبرن وباسل وزوريخ . فعرف رؤساء الكنيسة انَّ الداء لا يُحسم الَّا بدخول اليسوعيين وطلب الحبر الاعظم غريغوريوس الثالث عشر ان يُرسَل كانيزيوس الى فريبورغ فسار مع احد الرهبان اخوتهِ برفقة النائب الرسولي فرُوا في بعض الاحياء البروتستانيَّة ولم ينجوا من أذى سكَّانها حتى بلغوا فريبورغ في ١٠ ك١ سنة ١٥٨٠

وكانت فريبورغ عينها قد شرب قسمٌ من اهلها من كأس البروتستانت المكرة فتبعوهم في ضلالهم وبثوا في العموم ضروباً من التهم في حقّ اليسوعيين . الَّا انَّ القديس لم يشأ ان يزجرهم وفضَّل ان يظهر للجميع محبَّة الكنيسة الكاثوليكيَّة واهتمامها بخلاص النفوس فاستعدَّ لفتح مدرسة كبيرة للناشئة ثمَّ اخذ مع رفيقهِ يتفانى في خدمة المنكوبين من فقراء ومرضى ومحابيس مع القاء المواعظ والارشادات لكل

طبقات اهل المدينة ونشر التعليم المسيحي للصغار وزيارة المدن والقرى المجاورة. فما لبثت المدينة ان نفضت عنها غبار المراطقة وانتعش فيها روح الدين والايمان الحي. ثمَّ سعى الى ان يستأصل العادات التي ألفها الكثيرون من شرب المسكرات ومطالعة الكتب الفاسدة والاختلاط باعداء الدين

وما تمَّ بناء المدرسة الكبرى حتى تقاطر اليها الطلبة من كل صوب. فاصبحت منبعاً صافياً للتعاليم الكاثوليكيَّة استقى منهُ اهل فريبورغ وكل الاحياء المجاورة لهُ. وكان البروتستانت لما يرون من فضل الدين الكاثوليكي يأتون الى كانيزيوس ويلقون عليهِ مشاكلهم فيفضُّها فيرتدُّون الى ايمان اجدادهم وينبذون البدع الكاذبة آسفين على انخداعهم بإفك زعمائها

قضى كانيزيوس ١٩ سنة في سويسرة يرشد ويعلّم ويفتح المدارس الجديدة والاهلون يكرمونهُ اكرامهم لملاك نزل من السماء لا يحيدون في شيء عن نصائحهِ. وكانوا اذا سمعوا بانَّ الرؤساء يريدون اخراجهُ من بلدهم لا يسكن لهم بال حتى يقنعوهم بحفظهِ في ظهرانيهم. واذا خرج لمهمَّةٍ في محلٍّ آخر يراقبون حركاتهِ وسكناتهِ ريثما يعود بينهم فيفرحون برجوعهِ فرح البنين بأحبِّ الآباء. ولمَّا ضاقت مدرسة المدينة على كثرة طلبتها لم يتردَّدوا في ان ينفقوا المبالغ الطائلة لتشييد غيرها اوسع منها تُرى بقاياها الى يومنا

على انَّ ثقل الأيَّام وكثرة الاشغال لم تزل تهبط عاتق رسول سويسرا حتى نهكت قواهُ ومُني بمرض عضال في اواخر سنة ١٥٩٧ فكان الاهلون لا يكفُّون عن الصلاة لشفائهِ ويتألمون بأوجاعهِ ويودُّون لو يفدونهُ بحياتهم. الَّا انَّ ساعة جزائهِ كانت حلَّت. ولمَّا شعر بقرب الوفاة لاحت على وجههِ لوائح الفرح وردَّد كلمات الرسول: اني اريد ان انحلّ واكون مع المسيح. وكان آخر ما لفظت بهِ شفاههُ قولهُ مشيرًا الى صورة العذراء: انظروا! انظروا! السلام يا مريم! فسلَّم روحهُ بين ايدي تلك الام التي كان دافع عن شرفها مرارًا قدَّام المراطقة. كانت وفاة كانيزيوس في ٢١ ك ١ ١٥٩٧ وعمرهُ ٧٦ سنة قضى منها في الرهبنة اليسوعيَّة ٥٤ سنة

وقد تعدَّدت الكرامات بشفاعتهِ بعد مماتهِ منها انَّ اهل فريبورغ نجوا من الطاعون الذي قرب من مدينتهم قبل وفاتهِ كما كان وعدهم. وآيات أخرى كثيرة

مفصّلة في سيرة حياته وفحص البعض منها الكرسيّ الرسولي قبل تثبيته كطوبوي سنة ١٨٦٥ ثمّ قبل الاعلان به قديساً في العام الماضي ١٩٢٥

ومن ١٣٠ سنة لا يزال ذكر القديس حيًّا في فريبورغ وجثمانه مكرّماً يقصده اهل سويسرة من كل انحاء بلادهم كمزار شفيعهم ورسولهم الخاصّ

٤ القديس والملفان

قد ضاق بنا المجال مع قلّة ما ذكرنا من اعمال كانيزيوس ولا يسعنا الّا ان نذكر بوجيز الكلام شيئاً من فضائل القديس وعلومه

انّ قداسة كانيزيوس قد ظهرت منذ شبابه اذ كان دارساً في وطنه فانّهُ منذ ذاك الحين لدى اطّلاعه على فساد رفقته الدارسين نذر العفّة ليصون نفسهُ من كل دنس وكان يقوم ليلًا من فراشه للصلاة في الخلوة ويمارس ما استطاع من التقشفات

ولم يكتفِ يوم دخوله الرهبنة ان يمارس ما تقتضيه دعوتهُ من اسباب الكمال حتى اراد ان يبلغ ذروتهُ . فكان مثالًا حيًّا لكل الفضائل الكهنوتيّة لاخوته الرهبان ولعموم الذين يقربون من شخصه . ومن عجيب امره انهُ عاش بين احبار الكنيسة وملوك العالم وكل طبقات البشر والجميع يتفقون على فضائله السامية من تواضع ووداعة وغيرة متّقدة وحزم وثبات في العمل وصبر جميل على شدائد الحياة وعلى سوء معاملات اعداء الكنيسة وتفانٍ في خدمة كل المنكوبين وبؤساء هذا العالم . وكان يستمدُّ تلك الفضائل من مناجاة الله في الصلاة وممارسة الرياضات التقوية كلّما تسنح لهُ بها اشغالهُ المتراكمة . وعلى الرغم من سموّ اعتباره ونفوذ كلمته في كلّ حلقات ارباب الدين والدنيا لم يزل مطيعاً لأدنى اشارة من رؤسائه يُسرع الى تنفيذ اوامرهم مهما كلّفتهُ من الاتعاب

امّا علم كانيزيوس فانّهُ احد الامور المدهشة في حياته . فانّهُ قد اظهرهُ في جميع معاملاته اذ كان يلقي في نوادي العلماء وفي مجامع الكنيسة الخطب في كل العلوم الدينيّة من لاهوت وفلسفة وحقّ قانوني وتفسير الاسفار المقدّسة . بل علّم كل هذه العلوم في بعض الجامعات كانغولستاد وديلنغن . وكان خطيباً مصقعاً قد بقي قسمٌ من خطبه وارشاداته باللاتينيّة تشهد لهُ بطول باعه وعارضته . ولم ينكفّ عن تفنيد مزاعم

المبتدعين وكثيرًا ما كان يردُّ عليهم بديهاً دون استعداد سابق فيفحمهم تماماً

وكان الاحبار الرومانيون والاساقفة والملوك ثقةً بعلمهِ الواسع يستشيرونهُ في كل حاجاتهم فيحمدون نصائحهُ ويختبرون صحة نظرهِ فيها. وكفى بهِ شرفاً انهُ كان احد انوار المجمع التريدنتيني الجامع لمعظم اركان الدين ووجوه الكنيسة

وقد سبق ما اصابهُ كانيزيوس من الفوز الباهر بكتابهِ التعليم المسيحي . ولم يكن هذا اوَّل تآليفهِ ولا الوحيد. فانهُ باشر بالتأليف وهو في الثانية والعشرين من عمرهِ فنشر سنة ١٥٤٣ تآليف احد كبار معلمي الحياة الروحية تولر (Tauler) الشهير. وفي السنة ١٥٤٦ نشر اعمال القديس كيرلُّس الاسكندري باليونانيَّة ثمَّ نشر باللاتينيَّة في السنة ذاتها اعمال القديس لاون الكبير. وفي السنة ١٥٥٥ نشر تعليمهِ المسيحي السابق ذكرهُ مطوَّلاً ثم ملخصاً سنة ١٥٥٦ باللاتينيَّة والالمانيَّة. وطبع ايضاً في السنة ١٥٥٦ تأليفاً حسناً في تعزية المرضى وإعدادهم للميتة الصالحة. وفي السنة ١٥٥٧ نشر ردودهُ على تأليف برنتس البروتستاني. وفي السنة ١٥٦٠ ابرز كتاباً روحياً لصلوات المؤمنين ولتنظيم كل حياتهم الدينيَّة ومن امتع تآليفهِ كتاب سنكسار الكنيسة باللغة الالمانيَّة سنة ١٥٦٢. وفي السنة ١٥٦٣ خدم الآداب المدرسيَّة والتاريخيَّة معاً بنشرهِ مراسلات القديس ايرونيموس فضبطها ضبطاً تامًّا وذيَّلها بالحواشي . ومن السنة ١٥٦٩ الى ١٥٧٧ ألَّف مجلَّدين ضخمين ردًّا على ما ضمَّنهُ البروتستانت من التهم والاضاليل في دائرة معارفهم المطبوعة في مغدبورج (Les Centuriareurs de Magdebourg). وفي السنة ١٥٦٩ نشر مجموعاً نفيساً من الخطب والمواعظ لاعياد السنة . وفي السنة ١٥٧٠ زوَّد المؤمنين بشروح على الرسائل والاناجيل التي لا تقرأ في الكنيسة وفي السنة ١٥٧٥ وضع سيرةً للسيِّد المسيح كثر رواجها

فهذه وتآليف أخرى ايضاً لا تزال مخطوطة أهَّلت القديس كانيزيوس بان ينظمهُ الحبر الاعظم بيوس الحادي عشر يوم تثبيتهِ قديساً بين ملافنة الكنيسة وهو شرفٌ لم يُصبهُ الَّا قليلون من القديسين. وبهذا الامتياز الفريد كلَّل الله عبدهُ الامين بتاج من الفخر والجلال حتى في الكنيسة المجاهدة على الارض بعد أن خوَّلهُ في دار البقاء اكليلاً من المجد الاثيل الذي استحقهُ بحياتهِ البارَّة وجهادهِ الصالح

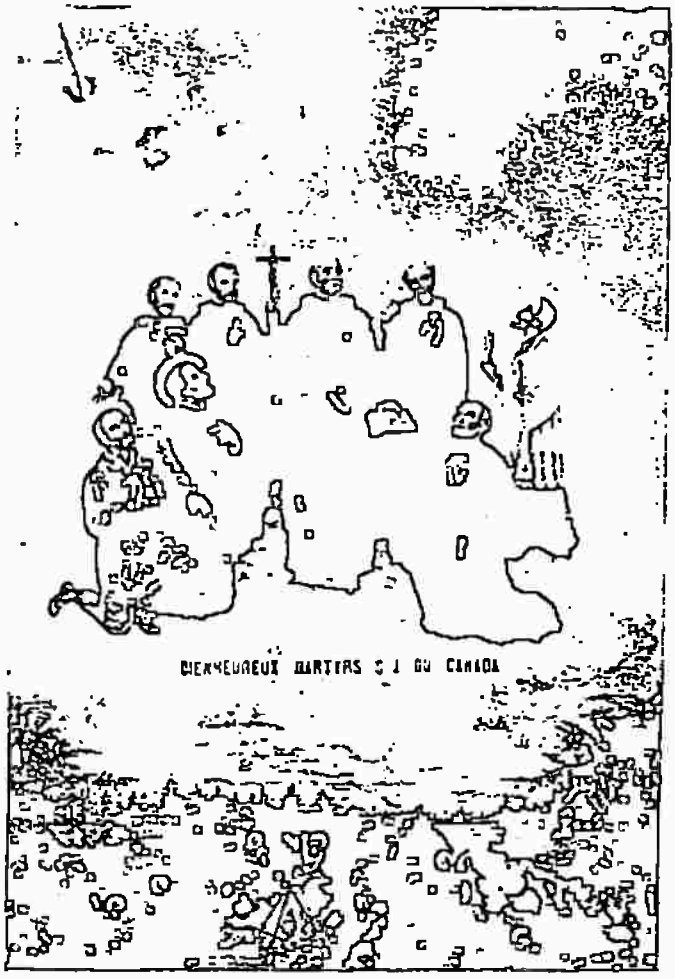

الطوبوبوده البوعبوده

شهداء كندا الثانية(١٦٤٦–١٦٤٩)